رواية بين عشية وضحاها كاملة

بقلم الكاتبة منال سالم

لتحميل المزيد من الروايات زوروا موقعنا

ايجي فور ترينس

او يمكنكم زيارة الموقع مباشرة من خلال

الروابط التالية

www.egy4trends.com

نُشرت هذه القصة القصيرة ضمن احتفالية

جروب بيت الروايات والحكاوي المصرية

تدور الأجواء حول الوقوع في الحب من أول نظرة

اشتد قَيظُ الصيف، وانعكست آثاره على الطبيعة، فكانت كمن يلهث بحثًا عن شربة ماء في دروب الصحراء الشاسعة. لهيب الشمس كان مُحرقًا، فلا ظل ولا ظليل، وكأنها نارٌ موقدة، ومع ذلك حاول قاطنو ذلك المكان القاصي التأقلم مع نمط الحياة القاسي بغير شكوى أو احتجاج، وكأن هناك هدنة غير معلنة بينهما للتعايش معًا في تناغم وانسجام، تحت وطأة كلًا من قوانين الطبيعة الصارمة، وقوانين البشر الآمرة. كاد كل شيء يسير على ما يرام إلى أن تلقت الدعوة المفتوحة للقدوم إلى هنا!

+

عبر الطرقات الوعرة وغير المعبدة تقافزت الحافلة البيضاء الصغيرة، فتأرجحت أجساد الشابات الجالسات بالخلف يمينًا ويسارًا وهن يتذمرن من طول المسافة. وضع السائق هاتفه المحمول على أذنه ليراجع مجددًا وصف وجهته مع أحد معارفه بدلًا من الاستعانة بخريطة مصورة أكثر دقة ووضوحًا، وكأن في استخدامه لها إهانة أو تقليل من قدراته الاحترافية في القيادة. أنهى المكالمة، ونظر عبر مرآته الأمامية لمن تجلسن خلفه هاتفًا بصوت مرتفع ومسموع لهن جميعًا:

-خلاص يا أبلوات،10 دقايق بالكتير ونوصل.

علقت إحداهن من المؤخرة في نبرة ساخرة، وبصوتٍ شبه خافت:

-بقاله ساعة عمال يقولنا كده، والعشر دقايق بتوعه دول مابيخلصوش نهائي.

حذرتها أخرى بصوتٍ خفيض:

-بلاش تريقة بدل ما يسمعك ويقلبنا في الترعة.

ضحكت في خفةٍ، وردت عليها:

-على رأيك، السواقين مابيستحملوش كلمة في حقهم.

ثم وجهت بعدئذ كلامها إلى الجالسة أمامها:

-"ياقوت" قربنا نوصل.

كانت الأخيرة شبه معزولة عن الضوضاء المحيطة بها، من خلال لجوئها لسماعات الأذن المخبأة خلف شعرها البني المسترسل في تموجات متدرجة حول وجهها.

شعرت ذات العباءة البيضاء، والبشرة القمحية بيدٍ تضغط بترفقٍ على كتفها، فالتفتت ناظرة للجانب وهي تنزع إحدى السماعتين عن أذنها لتسمع من تخاطبها وهي تكرر عليها:

-دقايق وهنوصل، هنطلب "سندس" ولا هنعمل إيه؟

ابتسمت في رقةٍ تماثل ملامحها وهي تخبرها:

-خليها مفاجأة أحسن.

علقت عليها في تحمسٍ واضح:

-والله محدش هيصدق إننا مجانين للدرجة دي، سبنا كل اللي ورانا وقررنا نحضر فرح صاحبتنا.

قالت لها بتأكيد، وابتسامتها الناعمة لا تزال تنير وجهها البشوش:

-ما هي دي فايدة الصحوبية.

بدأت الشابات اللاتي تتراوح أعمارهن بين العشرين والثانية والعشرين جمع أشيائهن المتناثرة هنا وهناك استعدادًا للنزول بعد ساعات من السفر المتواصل. شهقات متفاوتة في حدتها انفلتت من أفواههن عندما ضغط السائق على المكابح فجأة، ودون إنذار مسبق ليتفادى قطيع من الخراف قد اعترض طريقه ليعبر للجهة المقابلة، تذمر عاليًا في سخط مغلف بالإهانة:

-يالا يا شوية بهـايم، مش تفتحوا!

استمع أحد المارة إلى نعته الجارح، معتقدًا أنه يهينه عن عمدٍ، خاصة أنه يمتلك ذلك القطيع، فرد عليه في تحفزٍ:

-جرى إيه يا أخينا، إنت جاي بلدنا وتهينا فيها؟

رد عليه بحدةٍ، وكأنه يستعد للتشاجر معه:

-يعني أعمى مش شايف إن ده طريق، لأ وكمان معطله ومش عاجبك!!

في التو تدخلت "ياقوت" لتهدئة الوضع قبل أن يتفاقم، فرجته:

-خلاص يا أسطى، احنا مش جايين نعمل مشاكل مع حد!

تجاهلها متابعًا وصلة إهانته الفجة، وقاصدًا استفزاز ذلك الغريب:

-ما هو اللي حمار وفاكر نفسه أبو المفهومية، والجاموسة بتفهم أحسن منه.

أنذره الرجل ذي الجلباب المائل للون البني الدكان وهو يلوح بيده في الهواء:

-بردك امصمم تغلط، وأني هزعلك!

لم يكترث لتحذيره الصريح، وطوح بيده صائحًا بمزيدٍ من التجريح:

-يا عم غور في داهية!

نعته الرجل بلفظٍ نابٍ وهو ينصرف متوعدًا إياه بالانتقام قريبًا، بينما استمرت "ياقوت" على صياحها بالسائق ليحرك حافلته:

-امشي يا أسطى الله يرضى عليك، خلينا نروح لحال سبيلنا.

بالكاد أعاد تشغيل المحرك وهو يبرطم بتجهمٍ شديد:

-عالم ماتفرقهاش عن البهايم!

يتبع <<<<

بعد مرور ما يقرب من الربع ساعة، تباطأت سرعة الحافلة بالتدريج، لتتوقف أخيرًا بالقرب من مقهى يعج بعشرات الأفراد ممن يرتدون نفس الزي؛ الجلباب الفضفاض، مع فارق اختلاف ألوانه، والشال القماشي. ترجل السائق من حافلته تاركًا الشابات في انتظاره ريثما يستدل على العنوان الصحيح بعدما تشابهت الطرقات وتداخلت، فتعذر عليه الوصول إلى العنوان المطلوب. تنحنح قبل أن يهتف ملقيًا التحية على الجالسين وهو يشير بيده:

-سلام عليكم يا رجالة.

ردوا جميعًا في صيحة واحدة:

-وعليكم السلام.

سألهم في حيرة ظاهرة عليه:

-أومال بيت جماعة "عبد المجيد صفوان" فين؟

بادر أحدهم بإجابته في أسلوبٍ شبه ساخر منه:

-هو في حد مايعرفش قصر الحاج "عبد المجيد"؟!

نظر إليه باستعلاءٍ، وقال:

-احنا يا سيدي، فين مكانه بقى؟

أجابه مستخدمًا يده في الإشارة:

-آخر العذبة القبلية!

سأله في وجومٍ، وقد انعقد ما بين حاجبيه:

-ودي فين دي كمان؟

نهض الرجل من مقعده الخشبي، تجاوز موضع وقوفه بخطوتين، وأشار إلى ناحية بعينها وهو يوضح له:

-اطلع طوالي من هنا هتوصلها.

اشرأب بعنقه محاولًا تبين معالم الطريق قبل أن يوجز في رده:

-متشكر.

ثم انصرف عائدًا إلى حافلته، ليقودها مجددًا نحو الوجهة الجديدة، لحظه العاثر تعرف عليه ذلك الرجل الغاضب الذي تشاحن معه لفظيًا قبل برهة وهو يدلف من المقهى، ليقابله أحد المتواجدين ويستغرب من امتقاع وجهه وعبوس كامل قسماته. سأله في فضولٍ ليعرف ما الذي تسبب في مضايقته:

-في إيه يا "عتمان"؟ وشك قالب ليه؟

أجاب على سؤاله بآخر:

-الجدع ده كان بيسأل عن مين؟

ببساطةٍ أعطاه الجواب:

-عن الحاج "عبد المجيد"!

بدت نبرته متوعدة وغامضة وهو يعلق عليه:

-بقى اكده، أني هعرف أخد حقي منه إزاي!

تحير كثيرًا في أمره، وسأله باندهاش متصاعد:

-هو حصل إيه ما تفهمني؟

نظر إليه بعينين محتقنتين، وقال:

-هتعرف لما أخليه عبرة قصاد الكل!

استشف من مدلول عبارته الأخيرة أنه لا ينتوي خيرًا، خاصة مع مغادرته المتعصبة، حاول اللحاق به لإيقافه وهو ينذره:

-اعقل يا "عتمان"! احنا مش أد بيت "صفوان"!

لم يلقِ له بالًا، وهرول في خطوات سريعة محاولًا اللحاق بالحافلة، بينما استدار رفيقه مهللًا في وسط المقهى بتوجسٍ:

-شكل في عاركة يا رجالة، اجهزوا بالسـلاح!

تعالت أصوات الاستهجان، ومن بينها صاحب المقهى الذي صاح في ذعرٍ:

-يا وقعة مربربة! شكل الليلادي مش هتعدي على خير!

يتبع <<<<

تجاوزت الحافلة ممرًا مورقًا على جانبيه بالأشجار، والنخيل، والشجيرات القصيرة، لينتهي بها المطاف عند سور حجري ضخم، يصل ارتفاعه لثلاثة أمتار، في نهاية حافته تتدلى المزيد من أغصان الأشجار، لتخفي عن الأعين ما هو موجود بالداخل. قام السائق بالسير بمحاذاة السور، باحثًا على البوابة الرئيسية التي تسمح له بالمرور. في تلك الأثناء، تكلمت "ياقوت" في إعجابٍ، وقد بَهَر نظرها الطبيعة الخلابة للأرجاء المحيطة بها:

-ماشاءالله، المكان شكله تحفة.

ردت عليها إحدى الشابات في شيء من السخرية:

-مع إنه ما يبانش على "سندس" إنها غنية، ومن عيلة.

حزنت من جملتها غير الموفقة، وقالت في صوت مال للجدية:

-الحاجات دي شكليات، كل الل يهمنا إننا نشاركها فرحتها، وتحس بده مننا.

ضغط السائق فجأة على المكابح، لتندفع الشابات للأمام في قدر من الفزع والتوتر، وصوت أحدهم يجلجل وهو مشهر لسلاح آلي:

-وقف عندك!

سرعان ما تفشى الرعب في نظراتهن، وقسماتهن، وحاولن الاحتماء ببعضهن البعض. تجمدت أعين الجميع على ذلك الغليظ الذي ظهر أمامهم ومن خلفه آخرين يمسكون بنفس السلاح، ليتساءل في صوت خشن وصارم:

-على فين يا أخ؟ هي وكالة من غير بواب!

اضطرب السائق، وتلبك، فلم يعتد على رؤية ذلك الكم من الأسلحة أمامه، في التو تولت "ياقوت" دفة الكلام من تلقاء نفسها، وخاطبت ذلك الرجل:

-كلمني أنا لو سمحت، احنا جايين لصاحبتنا "سندس".

وقتها تبدلت تعابير وجه الخَفِير، وهتف:

-الست "سندس"؟!

لم تعرف إن كان يردد نفس العبارة أم أنه يتساءل ليتأكد مما سمع، لهذا ردت عليه بعدما اعتبرت كلامه تساؤلًا:

-أيوه.

تساءل آخر من خلفه بنبرة جهورية:

-مين إنتو؟

أجابت عليه أيضًا في هدوء رغم الاهتزازة المحسوسة في صوتها:

-احنا زمايلها في الكلية، ممكن تقولها إننا هنا.

أخبرها الخفير الأول في صوت آمر وهو يشير لزملائه بالانصراف:

-ماتتحركوش من إهنه لحد ما ندي الجماعة خبر.

هزت رأسها قائلة في طاعةٍ، وعلى شفتيها بسمة صغيرة:

-أوكي.

من ورائها تكلمت إحدى الشابات في دهشةٍ:

-إيه أجواء خط الصعيد، والحمشنة دي؟

ضحكت أخرى بخفةٍ، وأضافت:

-كأننا داخلين ثكنة عسكرية مش قصر عادي.

ردت عليهما "ياقوت" في جدية طفيفة:

-الظاهر إنهم مش متعودين على زيارات الغرب.

استعتبت وصفها التلقائي، وقالت في اعتراضٍ:

-هو احنا غُرب؟ ده احنا زمايل كلية وكافيتريا وأكل.

من جديد حذرت "ياقوت" رفيقاتها بنفس اللهجة الجادة:

-لو سمحتوا وطوا صوتكم، بدل ما يطخونا عشان الدوشة اللي عاملينها دي.

كاد كل شيء يسير على ما يرام لولا أن ظهر "عتمان" من بين الأشجار، وفي يده بندقية قديمة الطراز، أشهرها تجاه جانب السائق وهو يلعنه بوقاحةٍ مهينة:

-إنت يا جالوس الطين!

التفت الجميع جهة مصدر الصوت، و"عتمان" لا يزال يكمل وصلة تعنيفه الحادة:

-أيوه بكلمك إنت يا راس البهيم!

لحظتها ترجل السائق من حافلته ليرد عليه في حمئة وتشنج:

-أما إنك (...)، بتغلط فيا يا (...)؟

وضع "عتمان" البندقية في وضعية الاستعداد، بعدما رفعها في وجهه مهددًا إياه علنًا:

-اتشاهد على نفسك، النهاردة هنطلعوا بيك القرافة!

حينها ارتفعت الصرخات الأنثوية المستغيثة في الأجواء بشكلٍ مفزعٍ للغاية:

-يا لهـوي، الحقـونـا!

يتبع >>>>>

على ما يبدو انتشر خبر تشاجر "عتمان" مع أحد الغرباء في البلدة كالنار في الهشيم، فاجتمع الناس من كل حدب وصوب عند قصر عائلة "عبد المجيد صفوان" لمشاهدة هذه المشاحنة الـدامـية، دون أن يجرؤ أحدهم على منعه أو التدخل، فساد في محيط المكان حالة من الهرج والمرج، جعلت جميع من في القصر يخرجون في التو لمعرفة ما الذي يدور. سرعان ما تفرق

الحشد المتزاحم، وأخذ الجميع يتراجعون للخلف مع ظهور عدة أشخاص تبدو على هيئتهم الهيبة والمهابة، صاح أحدهم وهو يتقدم الصفوف بصوته الأجش الصارم، وجسده العريض الفاره:

-إيه اللي بيحصل إهنه؟

في التو انحنت الرؤوس احترامًا له، من بينهم كذلك كان "عتمان"، خفض بندقيته، وقال برأسٍ شبه منكس، كأنما يُعرف بهويته:

-"صفوان" بيه!

تكلم أحدهم –يدعى "مطاوع"- هادرًا في الحاضرين بانفعالٍ:

-هي سويقة ولا وكالة من غير بواب علشان الكل يجي يقف إهنه؟

دون استئذان هتف "عتمان" شاكيًا وهو يهز بندقيته في تشنجٍ رغم انخفاضها:

-الجدع ده غلط فيا، وعابني، وأنا جاي أخد حقي منه.

رد عليه السائق بتحفزٍ:

-على أساس أنا هسكتلك؟!

عندئذ اخشوشنت نبرة "صفوان" محذرًا كليهما بعدما أخرج مسدسه الفضي من جيب جلبابه:

-إلزم الأدب منك ليه...

توتر "عتمان" حينما رأى ما بيده، وانعكس القلق كذلك على السائق، استمر "صفوان" يُحادثهما في نفس النبرة المنذرة:

-إنتو في بيت الكبير! وإهنه قوانينه بتمشي على رقاب الكل!

تجرأ "عتمان" ليقول في شيءٍ من الاندفاع:

-على راسي يا كبيرنا، بس هو اللي آ...

رفع "صفوان" سلاحه في وجهه مقاطعًا إياه بصرامةٍ:

-ولا كلمة زيادة!

التزم الصمت قسرًا، وإلا لوجد طلقة نارية مستقرة في منتصف جبينه. انتهز السائق الفرصة ليبرأ ساحته:

-يا ريس أنا غريب، وجاي أوصل الجماعة دول عندكم، وهو مدبقني من أول ما جيت البلد.

رغم اعتراضه على طريقة حديثه غير المهذبة معه إلا أن الحيرة اعترت ملامح "صفوان"، تطلع إليه، وتساءل في جدية:

-جماعة مين؟

أجاب عنه أحد الخُفراء وهو يشير نحو حافلة السائق بربكةٍ ملحوظة، وكأنه تناسى مسألة تواجدهن في خضم نشوب هذه المشاحنة الحامية:

-دول اللي كانوا بيسألوا عن الست "سندس" يا سعادت البيه.

تحولت الأنظار كافة تجاه الحافلة، حيث تختبئ الشابات خلف الزجاج، وعلى أوجههن تتجسد أمارات الرعب والخوف. كعهدها تكلمت "ياقوت" من جديد، وأوضحت من

موضع جلوسها، دون أن تظهر ملامحها للحاضرين:

-احنا أصحاب "سندس" في المدينة الجامعية والكلية، وجايين نقوم بالواجب معاها في فرحها.

لحظتها انزعج "صفوان" كثيرًا من تعريض هؤلاء النسوة للخطر، خاصة مع معرفته لسبب حضورهن هنا، انقلبت سحنته، واسودت قسماته، ليصيح بعدها في زمجرة غاضبة ملقيًا باللوم على "عتمان" والسائق:

-كمان في حريم، وبتتخانقوا قصادهم؟!!

نكس الاثنان رأسيهما في تحرج مشوب بالخوف، فتابع "صفوان" تأنيبه القاسي بغير تساهلٍ، ومسدسه لا يزال في يده:

-طب هو غريب ومايعرفش عوايدنا، إنت بقى حجتك إيه؟

برر له "عتمان" بصوتٍ مرتعش:

-لا مؤاخذة يا كبيرنا، اللي حصل ده ماهوش مقصود...

قاطعه قبل أن يتم جملته مشددًا عليه:

-هنتحاسب في ده بعدين يا "عتمان"، ضيوف ست البيت في مقامها!

ثم صرفه بنظرة صارمة من عينيه، فتراجع منسحبًا في الحال دون المزيد من الجدال، بينما حاوط السائق اثنين من الخَفر، ومع هذا لم يجرؤ على الاعتراض، فأي كلمة يفوه بها، وإن كانت في غير محلها، قد تودي بحياته، بقي متسمرًا في مكانه، ينتظر التعليمات بشأن وضعه، في حين تحرك

"صفوان" تجاه باب الحافلة الجانبي، بعدما أعاد دس سلاحه الشخصي في جيب جلبابه، قام بفتحه من الخارج متكلمًا بصوتٍ هادئ ومرحب، غير ذاك القوي المجلجل:

-اتفضلوا .. البلد نورت.

ظهر التردد على الشابات، كان يخشين النزول من الحافلة، خاصة مع رؤيتهن لما حدث، تفهم لطبيعة خوفهن، وقـال مؤكدًا لهن:

-حقكم علينا، إنتو إهنه في أمان!

وكأن الشابات اتفقن ضمنيًا على تولية "ياقوت" مهمة التواجد في الصدارة، فقامت ناهضة من المؤخرة، لتهبط أولًا، لحظتها وقعت عينا "صفوان" على هذه الغيداء المتلحفة بلون الأنقياء، للغرابة انخطف قلبه،

وشعر بشيء غريب وغير اعتيادي يناوش أعمق أعماقه، وكأن هناك صحوة عجيبة تفشت في أحاسيسه الكامنة. نظرتها إليه كانت حائرة، قلقة، ممزوجة بالخوف، رغم إظهارها لشجاعة ظاهرية. أشاح ببصره، وحادت هي بعينيها عنه، ليأتي صوته آمرًا بصرامةٍ أكبر:

-افسحوا سكة للضيوف.

رد خفيره الأساسي في طاعة تامة:

-أوامرك يا كبير.

قال "مطاوع" في تبرمٍ نزق:

-كان لازمًا ناخد خبر إنهم جايين.

علق عليه "صفوان" بصوته الخشن وهو يفرك ذقنه النابتة والمرتبة:

-بيت الحاج "عبد المجيد" مفتوح لأي حد مهما كان مين!

اضطر على مضض ألا ينطق بشيءٍ آخر، ليتتابع هبوط الشابات من الحافلة، وصوت الخفير يهتف لإرشادهن:

-من إهنه يا هوانم.

تحركن وفقًا لإشارة يده؛ لكن "ياقوت" توقفت في منتصف المسافة لتستدير برأسها تجاه "صفوان"، سألته مباشرة:

-والشنط بتاعتنا؟

لم تكن من عادته النظر إلى النساء بدون حاجب أو ساتر؛ لكن معها بدا الوضع مختلفًا، وكأن بها سحرًا خفيًا يستحثه على الظفر بأي لحظة لتأمل وجهها النضر. ركز

بصره عليها ليطبع في مخيلته ملامحها الرقيقة الحسناء، وأجابها بلا ابتسامٍ:

-هتاجي لحد عندكم يا ست البنات.

اكتفت بهز رأسها وهي ترد:

-شكرًا.

واصلت المسير نحو الداخل لتلحق ببقية رفيقاتها، وعيناه بين اللحظة والأخرى تختلسان النظر إليها.

يتبع >>>>>>

في الفسحة الصغيرة، ذات أحواض الزهور الحجرية، والتي تسبق مدخل القصر، وُضع ثلاثة من أشرس الكلاب المدربة للقيام بمهمة حراسة المكان، بجانب مجموعة الخفر المكلفين بتأمينه. راحت تنبح في صوت مرتفع ومخيف بمجرد أن وطأته

الشابات، فارتعدن، وخشين الاقتراب،
تساءلت إحداهن في صوت مذعور:

-دول ممكن يهجموا علينا؟

رد عليها "مطاوع" في صوتٍ شبه هازئ:

-لو حد غريب جه، أو قرب نواحيهم.

ارتاعت الشابة أكثر بعد جملته هذه، وهتفت
في خوف غريزي، مشيرة نحو أحد الثلاثة،
ممن بدا طوقه الجلدي على وشك الإفلات
من يد صاحبه:

-خليه يمسكه كويس.

ضحك "مطاوع" ساخرًا منها، وأمر الخفير
باستهزاءٍ بائن:

-اوعى يفلت منك ياض!

أحكم الأخير ربط الطوق حول معصمه، ليضمن إبقاء الكلب تحت سيطرته؛ لكن ما إن اقترب منه "مطاوع" حتى همهم مبتسمًا بلؤم، وهذه النظرة الماكرة تطل من عينيه:

-ولا أقولك، أني همسكه لحد ما الضيوف يعدوا.

تعمد إرخاء الطوق تمامًا، ليترك مساحة كافية لهذا الكائن الشرس بالاقتراب من الشابات وإخافتهن، لعله بذلك يجد التسلية والمتعة في إرهابهن. ارتاعت "ياقوت" بشدة عندما رأت الكلب ينتفض استعدادًا للانقضاض عليها، فصرخت عاليًا، وارتدت للخلف، دون أن تنتبه لموضع قدمها، فالتفت ساقها بالأخرى، وتعثرت، وانطرحت للوراء، لتجد نفسها ترتمي في أحضان أحدهم، ممن تلقفها بسهولة، وحال دون سقوطها.

أدارت رأسها لتنظر إلى من أمسك بها بهذه المَسكة المحكمة، فإذ به صاحب الكلمة الناهية يحاوطها، تورد وجهها في التو، واكتسى بحمرة الخجل، اعتدلت واقفة، وشعورها بالحرج يغمرها كليًا، اعتذرت منه في صوت متذبذب:

-أنا أسفة.

لم يرد عليها، والتف موبخًا ابن عمه في تعصبٍ مبرر:

-"مطـاوع"! إنت اتخبلت؟!

انضمت "ياقوت" إلى باقي رفيقاتها، وعبرت هذه المساحة في خطوات سريعة، ليصلن إلى درجات السلم الرخامية، صعدن عليه، وولجن معًا إلى الداخل، في حين قبض "صفوان"

على ذراع ابن عمه، وشدد من قبضته متوعدًا إياه:

-حسابك معايا بعدين.

بالكاد انتزع ذراعه من أسفل أصابعه الغليظة، وقال في غير مبالاة:

-متكبرش الموضوع، ده أني بهزر، وبعرفهم احنا مين.

استفزه حديثه اللاهي، وحذره بنفس ذات الأسلوب الصارم:

-لأ هكبره، إلا ضيوف أختي، سامع!!

على مضض أذعن له قائلًا:

-ماشي يا كبيرنا...

أشار بعدها "مطاوع" للخفير ليقترب، أعطاه طوق الكلب، وتساءل:

-هتجي معايا الإسطبل؟ ولا أسبقك؟

بملامح مكفهرة، ونظرات لا تزال قاتمة أجابه:

-هحصلك!

غادر "مطاوع" بعدما اختطف نظرة سريعة على ابن عمه الواجم، بينما ظل الأخير قابعًا في مكانه، ونظراته معلقة بباب القصر المفتوح، لدهشته شعر بشيءٍ من الارتباك يصيبه، فداخله يستحثه على اللحاق بضيوف شقيقته، وعقله يأمره بالابتعاد والذهاب ونسيان شأنهن تمامًا. حسم أمره في الحال، وقرر الانصراف، فلا مجال للعواطف في حياته الجادة!

يتبع >>>>>

لم يطرأ ببالها للحظة واحدة أن تجازف صديقات الدراسة والثرثرة والمرح والشكوى

بالقدوم إلى أقاصي الأرض لمشاركتها فرحتها، فاقت سعادتها حد الخيال، وابتهجت بشكلٍ عظيم لرؤيتهن مجتمعات حولها.

بعدما استقرت الشابات في غرفتين متجاورتين للضيوف –بعيدًا عما يخص أهل البيت- ووضعن أمتعتهن بها، اجتمعن بالبهو الفسيح، نفضت "سندس" شعرها المعقود في جديلتين من اللون الأسود خلف ظهرها، وضحكت قائلة في سرورٍ:

-والله ما مصدقة إنكم هنا.

تكلمت واحدة من الشابات متسائلة في مرح شبه ساخر:

-مش هتحكي بالصعيدي؟

نهرتها في التو "ياقوت" بوجه جاد التعبيرات قبل أن يظهر ذلك في نبرتها:

-يا بنتي عيب!

لم تكترث لأمرها، وقامت "سندس" بتلبية طلبها، والتحدث باللهجة الصعيدية في طريقة لم يعتدن عليها معها، إلى أن جاءت السيدة "بهية" –والدة "سندس"- للترحيب بهن، تبعها عدة خادمات يحملن صواني الأطعمة والحلوى، وهي تخاطبهن في حرارة شديدة:

-امنورين يا عرايس، عقبال ما نشرب شرباتكم.

نظرت إليها "ياقوت" في حرجٍ، وقالت باسمة:

-شكرًا يا طنط، مالوش لازمة تتعبي نفسك.

صححت لها في نبرة معاتبة لكنها ودودة:

-قوليلي يا حاجة، يا خالة، بلاش كلام ولاد البندر ده.

ردت عليها بنفس الابتسامة الرقيقة:

-حاضر.

جلست "بهية" مجاورة لها، ومدت يدها لتربت على كتفها هاتفة في لطافةٍ واضحة:

-يحضرلك الخير يا بنيتي...

ثم وجهت كلامها للجميع، وهي تدور بعينيها عليهن:

-مش هوصيكم، دي حاجة بسيطة، لحد ما الوكل يجهز.

قالت إحداهن في مزاحٍ:

-ما شاء الله، ده احنا هنرجع وزننا زايد.

تطلعت ناحيتها، وأخبرتها:

-وماله، علشان تدورا وتحلووا بزيادة.

هتفت أخرى متسائلة في حماسٍ:

-عاوزين نتفرج على البلد يا "سندس"، ينفع ولا هيكون صعب؟

أجابتها بإيماءة من رأسها:

-مافيش مشكلة، هشوف وهظبط فسحة حلوة ليكم.

بدت والدتها غير معارضة كذلك، وقالت فيما يشبه الوعد:

-ماتشليوش هم، نخلصوا من حنة "سندس"، وأني هوصي ابني الكبير يفرجكم على نواحينا.

تساءلت أخرى في مكرٍ:

-على كده يا خالة في جناين عندكم وعذب وأطيان زي ما بنشوف ونسمع في الأفلام؟

هذا النوع من الأسئلة الفضولية السخيفة لم تحبذه "ياقوت"، فما تملكه أي عائلة هو شأن خاص، لا يحق لأحدهم معرفته، لهذا ظهرت الانزعاج جليًا على ملامحها، وقامت بلكز رفيقتها في جانب ذراعها وهي توبخها:

-يا بنتي اتلمي، مايصحش كده.

ضحكت "بهية" على ما يحدث من شد وجذب بين الشابات، وقالت بعدها:

-سبيها على راحتها، إيوه، خير ربنا موجود في كل مكان إهنه!

ظهر الحماس على وجوه الشابات، فاستطردت "ياقوت" قائلة بحرجٍ، وحفظًا لما الوجه:

-ما شاء الله، ربنا يزيد ويبارك.

قامت إحداهن ناهضة، وصاحت بعدما صفقت بكلتا يديها:

-احنا هنفضل أعدين كده ساكتين؟ عندنا عروسة عايزين ندلعها!

نظرت تجاهها "بهية"، وعلقت عليها بوجهها البشوش:

-لسه وخري هتاجي فرقة تهيصوا ليها.

ظلت الشابة على حماسها المتقد، وقالت وهي تجذب العروس من كلتا يديها لتنهض معها:

-ولحد ما هما يجوا احنا هنغني ونرقص سوا.

أظهرت "بهية" تشجيعها لذلك بقولها المؤيد:

-افرحوا وفرحوا الدنيا كِلاتها.

عندئذ تعالت أصوات البهجة المصحوبة بالزغاريد، وملأت جدران القصر الفسيح، لتسارع بعدهن الخادمات في الانضمام للحاضرات، ويتبارين جميعًا في الرقص والغناء على أشهر الأغاني الفلكلورية الشائعة.

يتبع >>>>>

تابع بنظراته الثاقبة، وملامحه الجادة الصارمة، ما يقوم به سَائِس الخيل، للعناية بخيوله الأصيلة ورعايتها، أعطاه التعليمات بشأن ما يخص نظافة الإسطبل، وتفقد معدات ركوبها، قبل أن يباشر حديثه مع الطبيب البيطري، ليتأكد من تمام عمله هو الآخر. تحرك "صفوان" عائدًا حينما فرغ من مراجعة كل شيء إلى حيث يجلس أبيه في

الفسحة المخصصة له بالمكان، على مصاطب خشبية مبطنة بالوسائد والكليم.

سُعال والده الخشن، وشبه المتواصل جعله ينزعج، ويقلق بشأن حالته الصحية، فأخبره في صوت جاد:

-يا حاج لازمًا نشوفلك دكتور كويس يكشف عليك.

بغير اكتراث علق وهو يشير بيده:

-خدنا إيه منهم غير شيلة الهم ووجع الراس!

كاد "صفوان" أن ينطق بشيء؛ لكن منعه صوت "مطاوع" الصائح في عنجهيةٍ غير محببة إليه:

-ياض نضف عِدل، حلل القرشين اللي بتاخدهم، ولا هو مال سايب؟!

حينها ناداه "صفوان" بصوته الجهوري الصارم:

-تعالى يا "مطاوع"، وسيبه يشوف شغله.

انضم إليهما ليجلس بأريحية على المصطبة، وهتف متذمرًا:

-يا كبير ده واد بهيم، محتاج يتسك على دماغه علشان يشتغل.

لم يستحق عناء الرد عليه، أو مجادلته، فاكتفى بالإشارة للسائس ليعود لمزاولة عمله، ونظراته تتابعه في اهتمامٍ، إلى أن تكلم "مطاوع" من جديد في نبرة متحمسة:

-أما أني لاقيت بعية حلوة للأبهر، ناس أكابر هيدفعوا فيه ألوفات وآ..

غامت ملامح "صفوان"، وانعكس الضيق في نظرته إليه، لم يمهله الفرصة لإكمال جملته، قطعها في المنتصف بقوله الحاسم والحازم:

-وأني قولتلك الأبهر مش للبيع.

احتج على رفضه بتبرمٍ:

-دي رابع بيعة أجيبها ليه وبردك ماترضاش!

لحظتها تدخل الحاج "عبد المجيد" قائلًا:

-سيبه على راحته يا "مطاوع"، المال ماله، وهو حر فيه.

ظل متمسكًا باعتراضه:

-بس ده فيه مكسب ليه ولينا.

وقتئذ تولى "صفوان" الحديث، وخاطبه في غير لينٍ:

-وهو أني بأخر عنكم حاجة لا سمح الله؟ كله بياخد حقه قبل ميعاده.

تلبك للحظةٍ، وتعلل متصنعًا الضحك:

-لأ يا كبير، بس الرزق يحب الزيادة.

أتاه تعقيب "صفوان" صارمًا، وكفه مرفوع أمام وجهه:

-خلاص، من حكم في ماله ما ظلم!

توقف عن جداله في هذا الشأن، وانتقل لآخر أكثر حساسيًا، وربما حرجًا:

-على إكده كان عندكو خبر بضيوف بت عمي؟

حينئذ رد عليه الحاج "عبد المجيد" بغير تساهلٍ، وقد لاحت هذه التكشيرة العظيمة على محياه:

-يا مرحب بأي حد جاي، هو احنا من مِتى بنقفل بابنا للضيف أو الغريب؟

توتر من طريقته، وحاول التبرير بادعاء الأكاذيب لإقناعهما بشيءٍ غير موجود من الأساس:

-معاك حق يا عمي، بس تحس الحريم دول مش شبهنا إكده...

حدق فيه كلاهما بنظرات غامضة، تملأها الحيرة، فاستمر يقول على نفس المنوال:

-وشكل عوايدهم غيرنا، ده المصيبة إنهم جايين إكده من غير راجل!

جاء إلى الجزء المستفز في حديثه بترديده:

-الله أعلم بأخلاقهم وآ...

قاطعه "صفوان" قبل أن يتم جملته متسائلًا في تحفزٍ، خاصة تلميحه المتواري بفساد سريرة هؤلاء الشابات وتأثير ذلك على شقيقته:

-قصدك إيه بكلامك الماسخ ده؟

أجابه دون أن يرف له جفن، وكأنه يلصق بهن اتهامات بأدلة غير موجودة لمجرد اعتقاد واه في رأسه:

-يعني بت عمي متربية، وعارفة الأصول والعوايد، بس دول غُرب، لونين إكده، وأهل البلد ما بيسكتوش، أكيد هيحكوا عن اللي حصل النهاردة.

وقتئذ استشاط "صفوان" غضبًا، فاندفع يهدر به بصوت شبه منفعل:

-اللي عنده كلمة يجي يقولها في وشي، وأني عارف هخرسه إزاي.

آنئذ طاف في مخيلته طيفًا مرئيًا لوجه هذه الحسناء الرقيقة حينما سقطت في أحضانه، طرد صورتها من ذهنه مستنكرًا ربط حديثه المسيء بها، وعبس بشدة. اضطرب "مطاوع" من عصبيته، وتعلل:

-أني عارف إنك قادر على إكده، وآ...

لم يرغب الحاج "عبد المجيد" في إثارة ثائرة ابنه دون داعٍ، فأجبر ابن شقيقه على ابتلاع باقي الكلمات في جوفه حين قاطعه:

-سيبكم من الكلام ده، وخلونا في فرح "سندس".

استجابا لطلبته، فتساءل موجهًا حديثه إلى ابنه:

-قولي ظبطتم الدبـايح؟

جاوبه وهو يومئ برأسه:

-أيوه يا حاج، كل اللي أمرت بيه تم.

استحسن اهتمامه بالأمر، واستطرد:

-على خير يا رب، عاوز الكل يفرح لبتي، دي جوهرة العيلة.

أكد له دون أن يبتسم:

-هيحصل يا حاج.

طالعه والده بنظرة واثقة قبل أن يخبره:

-وأني مطمن بيك يا "صفوان" يا ولدي.

مرة أخرى تساءل "مطاوع" في فضول مزعج:

-أومال "نوح" جاي الفرح ولا هيفضل قاعد مع مَرَته؟

نظر له "صفوان" شزرًا قبل أن يرد:

-هو أدرى بظروفه.

لم يطل في لغوه، ونهض من مكانه استعدادًا لانصرافه هاتفًا:

-طيب، هروح أشوف ورايا إيه، ولو في حاجة كلمني يا كبير على التلافون.

اكتفى بهز رأسه مقتضبًا في الحديث معه، ليدمدم في تأفف بعد ذهابه:

-لو بس يريح راسه من اللي مايخصوش!

تقوس فمه بامتعاضٍ طفيف قبل أن يعقب عليه:

-ما إنت عارف ولد عمك!

عبارته وإن كانت عادية وعابرة إلا أنها لخصت الكثير مما يقال، فطباع ابن عمه تنحصر في

إزعاج الآخرين، ومحاولته فرض السلطة، وممارسة دور غير منوط به، لمجرد الظهور بمظهر صاحب المهابة، لعل وعسى بذلك يظفر بخوف الناس لا محبتهم، فيظل في نظرهم كالآمر الناهي، على عكسه تمامًا كمنت شخصية "صفوان"، فإن كان صارمًا، وحازمًا فيما يخص شئون الغير إلا أنه يملك جانبًا إنسانيًا لا يجعل أحدهم يراه سوى من يثق فيه فقط، وجانبًا رحيمًا يقدمه فقط لمن يستحق. انتشله من شروده السريع صوت أبيه المتحدث:

-خلينا نشوف مصالحنا.

هز رأسه إيجابًا، وابتسم له مستأنفًا حديثه عن العقبات التي تواجهه في زراعة أحد أراضيه الزراعية، إذ ربما يقدم له النصيحة والمشورة ليتفاداها.

يتبع >>>>>

لدغة غير مرئية أصابت جلد إحدى الشابات،
فتأوهت من الألم، وراحت تحك بشرتها،
ليزداد التورم والالتهاب بها، نصحتها أخرى
بوضع مرطبًا أو دواءً لتخفيف حدة الألم،
فأبدت شكواها لـ "ياقوت" التي انتهت لتوها
من تبديل ثيابها بمنامةٍ مريحة:

-الناموس هنا صعب أوي.

ردت عليها بابتسامةٍ شبه ساخرة:

-ده على أساس مافيش في بيتكم زيه؟

ظهر التذمر على محياها وهي تخبرها:

-بس هنا زيادة، عاوزين نقول لـ "سندس"
تشوفلنا حاجة تخلصنا منه.

أشارت لها بسبب آخر أيضًا:

-ده عشانا قريبين من الجناين اللي هنا.

نظرت لها بامتعاضٍ قبل أن تزيد من تبرمها:

-مكانش في مكان أبعد من كده يحطونا فيه، ده احنا في المنفى، لا بنشوف حد ولا بنسمع حد.

استطال وجه "ياقوت" في ضيقٍ شديد من تذمرها غير المبرر، ولامتها في شدةٍ:

-عيب الكلام ده، احنا ضيوف هنا، المفروض نقدر اللي الناس بتعمله معانا.

وكأنه لم تقل شيئًا، استمرت تشتكي:

-هموت من الناموس مش قادرة.

التفتت الشابات جميعًا تجاه باب الغرفة الذي فُتح لتوه، وأطلت منه "سندس" وهي تحادثهن باسمة:

-من غير ما تقولوا، أني جيبتلكم الحل السحري.

تنفست "ياقوت" الصعداء لأنها لم تسمع ما قيل قبل هذه الجملة، وإلا لحزنت كثيرًا. راحت الشابات يتأملن ما حملت في يدها من مبخرةٍ حجرية صغيرة، ينبعث من أعلاها الدخان الأبيض، بادرت إحداهن بسؤالها:

-إيه ده؟ بخور؟

أجابتها وهي تطوف بالمبخرة في أرجاء الغرفة:

-حاجة زيه، بس نتيجتها أقوى.

علقت عليها إحداهن في طرافةٍ:

-حلاوتك وإنتِ بتتكلمي صعيدي!

ضحكت على ما فاهت به، ليتحول بعدها رنة ضحكاتهن إلى سعالٍ متفاوت مع كثافة الدخان المنتشر بين جدران الغرفة، راحت واحدة تشكو في تبرمٍ:

-احنا كده هنتخنق.

سعلت "سندس" مثلهن، وعلقت:

-شوية بس عقبال ما تأثيره يبان، وبعدها هتناموا أحلى نومة هنا.

انتظرت لدقيقة، وناولته لأخرى لتقوم بالانتقال للغرفة الثانية المتواجد بها بقيتهن، حتى تساعدهن في التخلص كذلك من الحشرات المزعجة. تحركت "سندس" نحو فراش "ياقوت" لتجاورها في الجلوس عليه، احتضنتها في محبةٍ قبل أن تتراجع عنها

لتحدثها في ألفةٍ بلهجتها التي اتخذت نمطًا صعيديًا:

-أني مبسوطة إنك عرفتي تَجي.

تنهدت مليًا لتخاطبها بعدها بوجهها البشوش:

-الحمدلله أقنعت خالتي، وأديني هنا.

ردت عليها في امتنانٍ:

-وجودك فارق كتير يا حبيبتي.

كانت تعلم أنه من غير السهل عليها السفر والترحال من بلد لآخر، خاصة بعد وفاة أبويها في حادث مأساوي، وانتقالها للعيش في كنف خالتها العزباء، كانت تتجنب أي رحلة متعلقة تذكرها بتفاصيل هذه الذكرى الأليمة، ورغم هذا جازفت لتأتي إليها

خصيصًا حتى تشاركها فرحتها. مجددًا ضمتها "سندس" إليها وشكرتها:

-ربنا يديم صداقتنا دي.

ظلت "ياقوت" محافظة على نقاء بسمتها ورفيقتها لا تزال تسألها:

-شوفتي المنظر من برا؟

هزت رأسها نافية:

-لأ لسه.

شدتها "سندس" من يدها لتستحثها على النهوض، وأضافت:

-الصبح بيبقى حلو أوي، الزرع الأخضر مع النيل، بس بالليل جميل بردك.

ثم أزاحت الستائر عن الشرفة، وقامت بفتح شباكها لتخرج الاثنان إلى الخارج، استندت

كلتاهما على السور الرخامي، وجالت
ببصريهما على الفضاء الفسيح الذي لا
يمكن أن تصل إلى نهايته، أبدت "ياقوت"
إعجابها قائلة:

-معاكي حق.

هتفت "سندس" فجأة في حماسٍ وهي
تشير بيدها نحو مكانٍ بعينه بالقرب من
بوابة القصر:

-ده أخويا راجع أهوو.

اتجهت "ياقوت" بناظريها إلى حيث أشارت،
سرعان ما تذكرته، فهو من قدم لها العون
نهارًا عندما هاجمها ذلك الكلب الشرس،
تلبكت بشكلٍ ملحوظ حينما سألتها مباشرة:

-قابلتيه؟

لم تراوغها، وأجابت على سؤالها بآخر، كأنما تتأكد مما سمعت:

-اللي اسمه الكبير باين؟

هزت رأسها مسترسلة في الحديث:

-أيوه، "صفوان"، الكل متعود يناديه إكده، من أيام جدي الله يرحمه، إكمنه البكري لأبويا.

تعلقت عينا "ياقوت" به، فركزت حواسها معه، للدرجة التي انشغلت بها عن رفيقتها، خاصة وهي تراه يتحدث إلى البعض، تداركت نفسها، وأصغت إلى رفيقتها وهي ما تزال تتكلم عنه:

-وهو فعلًا كبيرنا، أهل البلد بيحبوه وبيحترموه، ولولاه مكونتش كملت تعليمي،

أصل عمامي كانوا معارضين ده، وهو صمم إني أخد أكبر شهادة.

انتفضت برعشة خفيفة عندما وجدته يمسك بنظرتها المتأملة إليه، تراجعت خطوة للخلف لتختفي عن مرمى بصره، وردت في خجلٍ:

-ربنا يخليكم لبعض...

ثم تعللت ببرودة الطقس قائلة:

-الجو فيه لسعة برد، تعالي نتدخل.

ربتت على ظهرها مرددة:

-حاولي ترتاحي بقى، ورانا بكرة يوم طويل.

ابتسمت لها في وديةٍ صادقة، ودعت لها بمحبةٍ:

-ربنا يتمملك على خير.

ضحكت في لطافةٍ، وتابعت بنبرة راجية:

-وعقبال ما أفرح بيكم كلكم!

أنهت "سندس" جملتها هذه وهي تنظر إلى رفيقاتها اللاتي بدأن في الغناء بمرحٍ احتفاءً بها، لتشاركهن حماسهن الكبير بطاقة مماثلة لهن.

رغم ظلمة السماء، والعتمة السائدة، إلا أن الإضاءات البراقة، والأنوار الملونة، جعلت هذه القطعة تحديدًا من الأرض تشع نورًا وبهجة، حيث تحول قصر العائلة إلى قطعة متلألئة تحت وطأة الضوء الصناعي الذي يغلف جدرانه من كل ناحية. بدأ أهل البلدة في الاحتشاد بالخارج للاحتفال بليلة الحناء، وانقسم محيط القصر إلى منطقتين: الخارجي خاص بالرجال، وبهو القصر خاص بالنساء. ارتفعت أصوات المزامير، والدفوف،

وامتزجوا مع أصوات الزغاريد، الكل يعبر عن فرحته بطريقته الخاصة، بينما الخادمات يتنقلن بين الداخل والخارج لتقديم صواني الطعام والشراب لجميع الحاضرين في همةٍ ودون كلل أو شكوى.

جلست "ياقوت" بين النساء تصفق وهي تضع على شفتيها ابتسامتها الرقيقة، لن تنكر أن عناء السفر الطويل، مع قلة الراحة والإرهاق، قد بدأ يؤثر سلبًا عليها، حاولت قدر جهدها مغالبة شعور التعب، والاندماج مع رفيقاتها في إظهار مشاعر المحبة والسعادة لـ "سندس". كانت الأخيرة في قمة دلالها وحُسنها، تجلس كالأميرة بين الجميع، تبتسم تارة وتضحك تارة أخرى، وحين تدعوها إحداهن للتمايل تنهض على

استحياء لتحرك جسدها قليلًا ودون مبالغة ثم تعاود الجلوس تاركة هذه المهمة لغيرها.

أحست "ياقوت" باهتزاز الهاتف في يدها، فنهضت بحذرٍ من مكانها، واتجهت للأعلى، حيث تتواجد الغرفة المخصصة لها ولمجموعة من رفيقاتها، كانت خالتها هي المتصلة، صوت الضوضاء والصخب حال دون سماعها لها بوضوح، لهذا اضطرت للانعزال بداخل الغرفة حتى تتمكن من الحديث إليها، ما إن أجابت عليها حتى جاء صوتها معاتبًا:

-هي دي اللي هكلمك يا خالتو كل شوية؟

تناست في غمرة انشغالها الاتصال بها، مما جعلها في وضع شبه حرج، ومع ذلك حاولت التدلل عليها وهي تبرر لها تأخرها في مهاتفتها:

-والله غصب عني يا "شيري"، وبعدين ما إنتي عارفة جو الأفراح بيبقى عامل إزاي.

ضحكت "شيرين" في لطافةٍ، وقالت:

-ماشي، المرادي هسامحك، بس طمنيني عليكي كل شوية.

-حاضر.

سألتها خالتها في استفهامٍ:

-مبسوطة عندك؟

أجابتها باسمة، وإن كانت تعلم أنها لن ترى ملامحها المسرورة:

-المكان جميل الصراحة، والناس كُرمة أوي.

تنهدت "شيرين" في ارتياح لكون ابنة شقيقتها الراحلة قد وجدت أن تكبدها

لمشقة هذه الرحلة الطويلة استحق العناء.
أخبرتها بصوتٍ هادئٍ، وبما يشبه التوصية:

-طب الحمدلله، خدي بالك من نفسك، ونامي كويس.

كان من العسير عليها محاولة التأقلم مع تغيير الأماكن، وخاصة الأسِّرة، لهذا ردت بعد زفرة سريعة:

-هحاول.

أنهت معها المكالمة، وحررت زفيرًا آخرًا عميقًا من رئتيها، لم ترغب في النزول سريعًا ومشاركة الأخريات مظاهر الغناء والرقص، أرادت إعطاء رأسها الذي يئن من ألم الصداع فسحة من الوقت ليستريح، فكرت في فتح الشُرفة والتطلع منها، وكان قرارها مثاليًا،

فالأجواء اللطيفة ليلًا بعثت على نفسها السكينة.

طافت بعينيها على المدى الممتد أمامها، استطاعت أن ترى احتشاد الرجال في بقعة ليست ببعيدة عن مرمى بصرها وهم يتبارون بالعصي ويرقصون بشكل ذكوري على الأنغام الشعبية الشائعة هنا، ومن خلفهم حفنة يرقصون بالخيول في تناغم بديع، استمتعت بالمشهد الحي إلى أن سمعت جلبة قريبة تأتي من جهة اليسار، تحولت بنظرها إلى هناك، وأمعنت النظر في العتمة المنتشرة محاولة تبين ما يحدث، رأت أحدهم يطرح الآخر أرضًا بعد وكزه في ظهره، وآخر يقوم بتوثيقه من يديه كأنما يأسره، سرعان ما حل الخوف على محياها

وقد لمحت سلاحًا مصوبًا إلى جبهة ذلك الأسير، هتفت لنفسها في توجسٍ متعاظم:

-هما هيقتلوه ولا إيه؟

هوى قلبها في قدميها فزعًا عندما طاف بعقلها فكرة مفاجئة، نطقت بها في التو:

-لأحسن يكون السواق بتاعنا اتخانق تاني!!!

غالبت خوفها، وانطلقت للأسفل وهي تردد لنفسها بعزمٍ شديد:

-أنا لازم أمنع الجريمة دي قبل ما تحصل!

يتبع >>>>>

لم يشعر أحد بغيابها وسط الزحام والصخب السائد، خاصة حينما تسللت من باب الخدم الخلفي للقصر لتبحث عن ذلك السائق الأسير. رفعت "ياقوت" طرف عباءتها

الذهبية لئلا تتعرقل فيها أثناء هرولتها المتعجلة، لمحت هؤلاء الرجال على مسافة عدة أمتار، وقبل أن تفكر في الاقتراب منهم وإظهار نفسها، أمسكت بهاتفها المحمول، وقامت بتسجيل ما يقومون به باستخدامه، لتوثقه كدليل حي وملموس على جريمتهم النكراء. خفضت من الهاتف ثم تقدمت ناحيتهم وهي تصيح في "مطاوع" الذي كان يهدد بذراعه الممسك بسلاحٍ ناري في الهواء:

-بتعمل إيه عندك؟

تفاجأ بوجودها، وكذلك الخَفر، فصاح مستنكرًا:

-مين هناك؟

استطاعت "ياقوت" أن ترى ذلك الأسير، لم يكن السائق كما ظنت، بل آخر وجهه مكدوم،

ومتورم، تغلبت على تأثير المفاجأة، وهتفت في صوتٍ آمر، رغم ارتعاش نبرتها:

-سيبه!

وكأنها أتت كالنجدة من السماء، حاول ذلك الأسير الفرار؛ لكن أسقطه "مطاوع" أرضًا، وضرب جبينه بمؤخرة سلاحه، قبل أن يوبخها في حدةٍ:

-إنتي مين يا حُرمة؟

شهقت فزعة من عنفه، وهددته بتوترٍ مبرر:

-أنا صورت اللي إنت بتعمله ده، ولو قربت منه هبلغ عنك البوليس!

اربد وجهه بالضيق الشديد، وهدر بها منفعلًا، وبأسلوب مغلف بالإهانة:

-اتجننت الحُرمة دي ولا إيه؟ ملكيش صالح باللي بنعمله، انجري خشي جوا مع الحريم!

لم تتراجع "ياقوت" عن دفاعها، واستمرت تقول:

-عاوزني أشوفك بتموته وأسكت؟

ثم أعطت الجميع نظرات مستهجنة مليئة باللوم وهي تواصل الكلام:

-احنا في بلد فيها قانون، وغصب عنك هتلتزم بيه وتحترمه.

استفزه ردها، فارتفع صوته أكثر وهو يصوب مسدسه ناحيتها:

-إهنه احنا القانون!

ارتاعت من تهديده الصريح، وصرخت فزعًا عندما اختطف هاتفها المحمول عنوة من يدها وهو يخبرها:

-وهاتي البتاع ده.

في تلك الأثناء جاء "صفوان" بعدما تم إبلاغه بإلقاء القبض على أحدهم، ممن حاولوا استغلال انشغال الجميع بليلة الحناء، وتسلل إلى إحدى الحظائر، لسرقة بعض الماشية. تفاجأ بوجود هذه الحسناء بين الرجال، كانت كشعلة من اللهب بثوبها الذهبي البراق، فتخطف الأنظار، وتسلب الألباب، وما زاد من وطأة تأثير الصدمة عليه اشتباكها اللفظي مع "مطاوع"، والذي تحول في سرعة البرق إلى يدوي حينما انتزع منها هاتفها، أسرع في خطاه تجاهها، ونادى بصوته الجهوري الصارم:

-"مطـاوع"! إيه اللي بيحصل إهنه؟

تجاوزها ليصبح في مواجهة ابن عمه، وشكل بجسده حاجزًا ليحول دون مساسه بها، ليخبره الأخير في شيءٍ من الشكوى المتذمرة:

-بنت الأغراب جاية تقولنا نعمل إيه ومانعملش إيه؟

تضرج وجه "ياقوت" بحمرة الضيق، بينما اشتعلت نظرات "صفوان" بوضوح، ليزداد الموقف توترًا بإضافة ابن عمه:

-ما عاد علينا إلا آ...

طريقته في إلقاء جملته أوحت بإهانة فجة، لهذا لم يمنحه الفرصة لإكمال جملته، وأنذره في نبرة صارمة للغاية وهو ينتصب في وقفته السامقة:

-ولا كلمة!!!

للغرابة راحت "ياقوت" تهدد رغم الخوف المنتشر في أوصالها:

-أنا مش هسكت عن أذية حد، حتى لو كان غلط!

نظر لها "مطاوع" باستحقارٍ قبل أن يبرر تصرفه العدائي:

-يا كبير ده حرامي، مسكوه الغفر في الزريبة وهو بيسرق، ما أني شيعت الغفير يقولك.

رد عليه "صفوان" في حزمٍ:

-والمأمور معزوم عندنا، نقدر نسلمه ليه، وبعدين دي ليلة أختي، والحكومة كلها حدانا، عاوز تخلي فيها مشاكل؟ دي وصيتي ليك يا ولد عمي؟

ثم أمره وهو يمد يده ناحيته:

-هات اللي خدته مِنها.

على مضضٍ أعطاه هاتفها المحمول، ليقدمه "صفوان" لها وهو يقدم اعتذارًا لبقًا، من موضعها تطلعت "ياقوت" إليه في دهشةٍ، لم تتخيل أنه بهذه العقلية المتفهمة، المراعية، الآن استوعب مدى تبجيل وتوقير رفيقتها لشقيقها، كانت تظن أنها تفعل ذلك كنوعٍ من المبالغة، قطعت تواصلها البصري عنه عندما احتج عليه ذلك الفظ في غيظٍ:

-ومن مِتى بندخل الحكومة في اللي يخصنا؟

وقبل أن يرد عليه "صفوان" تابع في وقاحة مستنكرة:

-ولا عشان الحُرمة دي نعرت نعرتين نخافُ ونكش؟!

أحست "ياقوت" بالإهانة الشديدة، خاصة أمامه، فأدمعت عيناها في الحال، لم يأتِ ببالها أن يقوم أحدهم بالإساءة إليها بهذا الشكل الوقح، وهي التي تبذل قصارى جهدها لتراعي مشاعر وعواطف الآخرين، كان من المحرج لها أن تُهان على مرأى ومسمع الغرباء، فانسحبت مغادرة وهي تكبت عبراتها، بينما انتفض "صفوان" يزأر في وجهه بوحشيةٍ:

-لآخر مرة بحذرك تجيب سيرتها! وإلا هيطولك زعلي، وإنت خابرني، مابفرقش بين ولد عمي والغريب!

لحظتها تخلى "مطاوع" عن محاولة معاداته، ولو ظاهريًا، لتأتي بعدها أوامره بتسليم ذلك اللص إلى أفراد الأمن، ثم التفت باحثًا عن ضيفته صاحبة الطلة البهية؛ لكنه لم يجدها

في الأرجاء، اشرأب بعنقه، وفتش عنها هنا وهناك وهو يتساءل متحيرًا:

-راحت فين دي؟!

يتبع >>>>>

كرياح عاصفة، انطلقت عائدة إلى الطابق العلوي، حيث تتواجد الغرفة التي تقيم بها مؤقتًا، أغلقت عليها الباب، وقاومت قدر استطاعتها عدم الانخراط في نوبة البكاء الوشيكة التي ستفسد حتمًا مظهرها الجمالي، ورددت لنفسها في حنقٍ له أسبابه:

-كويس إنهم يومين وبس، ومش هشوف الناس دي تاني!

وقفت أمام المرآة محاولة إصلاح مساحيق التجميل التي تزين بشرتها، حتى تخفي آثار

الحزن من عليها، وظلت تخاطب نفسها في استياءٍ عارم:

-بني آدم معندوش دم ولا إحساس!

مسحت بالمنديل الورقي العالق من الدموع في أهدابها، وضبطت المهوش من خصلات شعرها قبل أن تطرح عليه ساترًا حريريًا لتغطيه، دمدمت مع نفسها بنفس النبرة المحتدة:

-مش عامل اعتبار لحد!

لحظتها ولجت إلى الغرفة رفيقتها، كانت تفتش عنها، فاندهشت من جملتها الغريبة تلك، وسألتها مستفهمة:

-هو مين ده؟

راوغتها في الرد:

-ماتخديش في بالك.

لم تلقِ بالًا للأمر كثيرًا، واستطردت في نبرة تحقيقية:

-إنتي أعدة هنا، واحنا بندور عليكي تحت؟!!

أخبرتها محاولة رسم ابتسامة خفيفة على محياها:

-لاقيت دماغي مصدعة فقولت أبعد عن الدوشة.

أمسكت بها من ذراعها، وحاولت شدها للخارج وهي تتابع:

-طب تعالي، "سندس" عاوزانا نتفرج على أخوها وهو بيرقص بالخيل.

عند الإتيان على ذكره، قصف قلبها فجأة بقوة، وكأن في رؤيتها له تذكيرًا قويًا بما كانت

عليه من وضع مهين، في الحال رفضت دون تفكيرٍ:

-مش عايزة.

تعجبت من رفضها غير المبرر، وسألتها:

-ليه؟ ده الناس كلها مستنياه!

تعللت بنفس الحجة:

-الصداع مش مخليني مركزة.

أصرت عليها رفيقتها بقدرٍ من الإلحاح:

-دي هتزعل منك، يالا بقى ماتبقيش بايخة.

أمام تصميمها اضطرت أن تستسلم، فقالت بامتعاضٍ عابس:

-حاضر.

يتبع >>>>>>>

للوهلة الأولى قد يبدو الأمر غريبًا ومستنكرًا عليه، ولكن هناك ما يجذبه إليها بشكل ارتاع منه، ألهذه الدخيلة ذلك السحر القوي على شخص مثله لا يجيد التعبير عن عواطفه، ولا يحبذ مشاركة غيره مشاعره الحقيقية؟ استعر داخله، واندلع الغضب به عند رؤيتها في موضع التهديد، أحس بواجبه الكامل ناحيتها للذود عنها، وحمايتها من أي خطر، للدرجة التي جعلته يُعادي من يفكر مجرد التفكير في المساس بها. التهى عقله بشأنها، فلم يظهر اهتمامه بمن جاءوا للمباركة والتهنئة، إلى أن حان دوره للاستعراض بمهاراته في الفروسية، وقيادة جواده "الأبهر"، ذلك العصي الذي يصعب على غيره قيادته!

اختطف نظرة نحو الشرفة العلوية، حيث تقف النسوة بالأعلى، فتش عنها بنظرات

سريعة، لم يجدها بينهن، غامت ملامحه، وانعكس الضيق في نظراته، حادث نفسه بلا صوت:

-لتكون مضايقة لسه!

اسودت تعابيره أكثر وهو يتوعد ابن عمه:

-طيب يا "مطاوع"، أني مش هفوتهالك!

بدأ في ممارسة ما اعتاد فعله على أنغام المزامير، وسط تصفيق الحاضرين وانبهارهم، وكل لحظة وأخرى يختلس نظرة سريعة نحو الأعلى، مبتسمًا في الظاهر لشقيقته، وباحثًا بقلبه ونظراته عنها، على أمل أن يلمحها، فتخمد نيران الحنق المتأججة فيه.

يتبع <<<<

اختبأت خلف أجساد النساء؛ لكن أصواتهن الحماسية، مع تهليل الرجال، أشعرها بفخامة ما يحدث، استحثها فضولها على ترك ضيقها جانبًا، والاستمتاع بمظهر قلما تراه، تقدمت بحذرٍ للأمام، حتى أصبحت ملاصقة للحافة الرخامية المصقولة لسور الشرفة، راحت عيناها بتلقائيةٍ بحتة تتطلعان إليه، انخطف قلبها وحلت به خفقة عظيمة عندما رأت نظرته إليها، اشتعلت بشرتها في الحال، وأحست بسخونة غريبة تندفع إلى كل ذرة فيها، ظنت أن ذلك ردة فعل متوقعة بعد الذي مرت به في وجوده، وسرعان ما ستزول باختفاء المسبب. لدهشتها استمرت على هذه الربكة الخجلى طوال متابعتها له، العجيب أيضًا بالنسبة لها أنها لم ترغب في انتهاء فقرته، أرادت التمتع بكل لحظة تشاهده فيها. لم تشعر بشفتيها وهما

تتقوسان لتشكل ابتسامة رقيقة بددت خلفها أي حزن سابق، التفتت للجانب عندما رددت إحداهن بشكلٍ عفوي:

-الله يحميه لشبابه كبيرنا وكبير عيلتنا.

بينما أضافت أخرى:

-يا بختها اللي هتكون من نصيبه!

وكأنهن يقدمن لها معلومات مفيدة عن وضعه الاجتماعي دون الحاجة للتحري عنه، ابتسمت أكثر لذلك، وتحولت ببصرها نحو بقعة بعينها وامرأة تنادي:

-مش ده سي "نوح" اللي جاي

هللت "بهية" في سرور كبير:

-ما شاء الله، الغالين كلهم حدانا.

أوضحت "سندس" لرفيقاتها المحيطات بها:

-ده أخويا التاني يا بنات، اللي كنت حكيت ليكم عنه، جه مع مَرَته.

بدت السعادة على "ياقوت" لرؤية رفيقتها المقربة في قمة فرحتها، فما أجمل الاجتماع بالأحبة والتمتع بوصالهم الغالي!

يتبع >>>>>

أمن المحتمل أن يكون قد وقع في سحر الحب من أول نظرة؟ هذا ما رفض تصديقه واستيعابه تمامًا، رغم استحواذ طيفها الناعم على تفكيره وانشغال عقله بها. جاهد "صفوان" طوال اليومين التاليين لتجنب اللقاء بها ولو مصادفة، خاصة خلال مراسم إكمال الزفاف والعرس، انشغل بكل شيء وأي شيء، آملًا أن يزول ذلك الشعور الغريب المسيطر عليه، والذي يجعله في حالة ارتباك غير عادية؛ للعجب كان يزداد

لوعة واشتياقًا ببعده عنها، توهم أنه سيغدو بخير عندما يعلم برحيلها، أحس وقتئذ بحزٍ موجع في قلبه وقد أبلغه والده باستعداد الشابات للمغادرة، تجهمت قسماته، وقال في صوتٍ أجش واجم:

-العربيات موجودة تنقلهم مطرح ما يحبوا!

رد عليه الحاج "عبد المجيد" في هدوءٍ وهو يستند بكفيه على رأس عكازه:

-الحاجة قالتلي إن السواق بتاعهم جاي.

وكأن ذلك الشعور الخفي بالألم يزداد عمقًا وتأصلًا به، فقال باذلًا أقصى طاقته ليبدو عاديًا غير مهتمٍ بذهابها هي دونًا عن غيرها:

-خلاص نبعتوا معاهم غفير ولا اتنين يأمنوا الطريق لحد ما يوصلوا محطة القطر:

اندهش من اهتمامه المبالغ به، ومع ذلك علق:

-اللي شايفة يا ولدي صح اعمله.

لحظتها تمنى من أعماق وجدانه أن يلتقي بها في مرة أخيرة قبل أن تغادر عالمه القاصي للأبد.

يتبع <<<<

في مكانٍ مترامي الأطراف، وبحضن الجبل تحديدًا، اجتمع بعض الرجال -ممن تظهر عليهم علامات الإجرام- حول شجرة وحيدة، تطرح ظلها على الجانب، يتناقشون فيما بينهم عن أمر خطير يدبرون له، أزاح أحدهم ذلك اللثام الأسود عن وجهه الأسمر عندما خف الغبار الهائم في الأجواء، وتساءل في تحفزٍ شديد:

-إنت متأكد ياض من الخبر ده؟

أكد له بإيماءة من رأسه وهو يفرغ الشاي الساخن في كوبه:

-أيوه يا ريس.

تكلم آخر بشيءٍ من الاقتراح:

-دي فرصتنا، نطبوا على الركوبة بتاعتهم، وناخدهم عندنا، ونساومهم راجلنا قصاد حريمهم.

نظر إليه مليًا، وكأنه يفكر فيما فاه به، فمنذ أن تم إلقاء القبض على أحد أتباعه من قطاع الطرق عندما حاول سرقة إحدى الحظائر وهو يفكر بشتى الطرق في كيفية تخليصه من الحبس دون خسارة المزيد من رجاله الأشداء. علم من قبيل الصدفة عن الغريبات اللاتي جئن لزيارة عائلة من ألقوا

القبض عليه، حتمًا لن يضعوا نسائهن في مرمى الخطر، إن تم أسرهن والمساومة باستعادة تابعه المخلص في مقابل سلامتهن. كانت الخطة بسيطة وواضحة، اعتراض طريقهن قبل مغادرة البلد، واتخاذهن كأسيرات للمفاوضة بهن من أجل تسليم رجله. انتشى للفكرة بعدما اختمرت في رأسه، وصاح آمرًا من حوله:

-قول للرجالة يجهزوا، عندنا طالعة.

هب من يعد ذراعه الأيمن واقفًا، وهتف بحماسٍ يضاهيه:

-عُلم يا ريس!

يتبع >>>>>

لم يتوقفن عن الثرثرة المشوبة بقدرٍ من الغيبة والنميمة، خاصة حينما التقين

بالشقيق الثاني لرفيقتهن أثناء العرس، حيث امتاز بالوسامة الممزوجة بالرجولة، بالإضافة لشخصيته اللطيفة والمرحة، وكأنه على النقيض كليًا بشقيقه الأكبر، لهذا كان من البديهي أن يحوز بأسلوبه على إعجابهن، وواصلن الحديث عنه بلا مللٍ ودون حياء أو حتى أي مراعاة لحياته الخاصة بالرغم من تحذير "ياقوت" لهن بالتوقف عن ذلك، ورغم كونهن على وشك المغادرة إلا أنهن بقين على نفس الحال المُتيم، استطردت إحداهن قائلة بنبرة والهة، وعيناها تتطلعان بسهدٍ للسماء:

-ده مافيش في جماله اتنين، أكيد عياله هيطلعوا حلوين زيه.

اعترضت على كلامها "ياقوت"، فنهرتها بجديةٍ:

-إنتي يا بنتي مش عاتقة حد؟!!!

ضحكت في ميوعة، وقالت بنبرة هازئة:

-الصراحة الواد طلع حليوة أوي، مش جو صعيد وخناشر خالص!

علقت عليها أخرى في مزاحٍ ضاحك:

-بطلي لأحسن يطخوكي هنا!

هتفت في غير اكتراث:

-خلاص ما احنا ماشيين.

كانت جملتها عادية للغاية، غير موحية بالمرة؛ لكنها تركت أثرًا بالغًا في نفس "ياقوت"، أحست بالوَحشة لذهابها عن هنا، كما لو كان في بُعدها عذابًا لها. شاع في نفسها الفراغ، وملأها الحزن، خاصة حينما تعذر عليها اللقاء بصاحب المهابة والكلمة

المسموعة، بدا وكأنه اختفى متعمدًا عن ناظريها لئلا يقابلها، ألمها ذلك الشعور، وسعت لوأده في مهده، مُذكرة نفسها أن جاءت هنا كضيفة عابرة، ومع ذلك كانت تتلهف شوقًا وتتحرق لسماع أي شيء عنه، لم تنسَ الخفقة الأولى لقلبها عندما تحدثت إحداهن عن قيامه بتوزيع اللحوم والطعام لجميع ساكني البلدة احتفاءً بعرس شقيقته، وتوالت الخفقان تباعًا مع كل مرة يُذكر فيها صنيعه.

لم تخجل حينما تجرأت لسؤال "بهية" عنه عندما جلستا معًا ليلًا بمفردهما على الأرائك بالصالة، والاستفسار عن نمط حياته، فأفاضت الأخيرة في عزة وتفاخر:

-ده زين ما ربيت، لا عمره ظلم، ولا جار على حق مظلوم، الكل بيهابه، بس بيحبه، ده كبيرنا كلنا.

السؤال الآخر الذي شغل بالها، وحيرها كثيرًا، هو عزوفه عن مسألة الارتباط، فتشجعت لتشبع فضولها بالاستعلام عن هذا الأمر على وجه الخصوص:

-طب هو ليه مفكرش يتجوز؟

أجابتها بعد زفرة بطيئة:

-ألف مين تتمناه، بس هو يشاور، ويقول يامه عاوز أتجوز دي وأني هجوزهاله.

استغربت للأمر، وسألتها بمزيدٍ من التحير، وقد انزوى ما بين حاجبيها:

-مش إنتو عندكم بنات كتير في العيلة؟ ليه مفكرش يخطب واحدة منهم؟

استرسلت شارحة لها برحابة صدرٍ:

-عيلتنا احنا التنين كلها جابت ولاد، مافيش إلا بتي "سندس"، وهي زي ما بنقول عليها دلوعتنا، وبنتين تانيين اتجوزوا من زمن، لما "صفوان" كان لسه صغير.

أصغت بانتباه لها، وشردت فيما قالته، دون أن تشعر بشبح الابتسامة التي تراقصت على شفتيها، تلبكت، وأصابها الحرج الجم حين سألتها "بهية" بمكرٍ مدروس:

-ألا صحيح بتسألي ليه؟ عندك عروسة لولدي؟

نفت في الحال، وموجة عاصفة من الاضطراب تجتاحها:

-لأ خالص...

ثم حاولت التبرير لها، فخرج صوتها مرتبكًا:

-ده أنا بفضفض مع حضرتك، زي ما متعودة أعمل مع خالتي.

برقت عيناها في لؤمٍ، وقالت وهي تربت على كتفها:

-وماله يا بتي، اسألي وماتكسفيش.

خجلت كثيرًا من تعرضها لهذا الموقف المحرج، ولاذت بالصمت رغم رحابتها في الحديث معها، حافظت على نعومة ابتسامتها الرقيقة وهي تدعو لها:

-وعقبال ما نفرحُ بيكي إنتي كمان.

ردت مجاملة قبل أن تستأذن بالذهاب:

-شكرًا لحضرتك.

صعدت للأعلى محاولة اختلاس النظرات للجزء الآخر من القصر، ذاك الذي تمكث فيه

العائلة، إذ ربما تلمحه مصادفة، لكن لسوء حظها لم يحدث ما تمنت، فعادت إلى الغرفة وهي شبه محبطة.

يتبع >>>>>

لم تنم "بهية" بعد انتهاء أجواء العرس، انتظرت البشارة، فجاءتها بالسرور، فتضاعف شعورها بالزهو والهيبة، فاليوم قد اكتملت مهمتها، وبدأت ابنتها في شق طريق حياتها مع زوجها. عاد "صفوان" من الخارج ليجد والدته مازالت مستيقظة، اقترب منها، وجلس مجاورًا لها وهو يسألها:

-كله تمام يامه؟

أجابته باسمة:

-الحمدلله.

نظرة سريعة سددها نحو الأعلى قبل أن يعاود النظر إلى والدته متسائلًا:

-في حاجة ناقصة عند الجماعة؟

ردت عليه بوجهها الهادئ:

-الحمدلله يا ضنايا، كفيت ووفيت.

ثم مالت ناحيته لتسأله في خبثٍ:

-بس قولي إنت، إيه رأيك؟

لم يفهم مقصدها المتواري، وسألها مستفهمًا:

-في إيه؟

أجابته بنظرة ذات مغزى:

-في صحاب أختك؟

أطرق رأسه قليلًا، وقال بحياديةٍ حذرة:

-بنات زينة.

اتسعت ابتسامتها الماكرة وهي تسأله مباشرة:

-و"ياقوت"؟

خفقة قوية نالت منه، وزلزلت كيانه لمجرد ترديدها لاسمها المماثل لها، بصعوبة ادعى جموده، وجهله بهويتها مردداً:

-مين فيهم؟

أطلقت والدته ضحكة مرحة قبل أن تسأله في عبثيةٍ:

-يعني مش عارفها؟

كلامها إليه كان يُعريه من وراء ذلك الحاجز الوهمي الذي يختبئ خلفه، تهرب من إجابتها قائلًا بعد نحنحةٍ سريعة:

-هتفرق إيه عن غيرها؟

تنهدت في صوتٍ مسموعٍ له، وأخبرته بنفس الأسلوب الماكر:

-ولا حاجة، هي بس كانت بتسأل متجوزتش ليه!

لحظتها تخلى عن حذره، وسألها في شيءٍ من الفضول المتلهف:

-وإنتي قولتيلها إيه؟

زادت ابتسامتها اتساعًا حين جاوبته:

-لسه النصيب مجاش، مش كده بردك؟ ولا غيرت رأيك؟

كان مكشوفًا لها، فحاولت التغطية على اهتمامه بها بالاستمرار في ادعاء عدم مبالاته، وليبدو مقنعًا نهض من جوارها هاتفًا بجدية:

-بلاش الأسئلة دي يامه، إنتي عارفاني ماليش غير في الدوغري وبس.

ضحكت في استمتاعٍ، لتقول بعدها:

-ربنا يبختلك الحلو كله.

لم يستطع النظر تجاهها، وإلا لفضحته عيناه، فاتجه نحو سلم الدرج مخاطبًا إياها بنفس الوتيرة الجادة:

-أني طالع أنام، عاوزة حاجة مني؟

جاء صوتها من خلفه:

-تسلم وتعيش.

في خطواتٍ شبه متعجلة صعد على الدرجات ساعيًا للفرار من شيء يخشى بكل جوارحه التصديق فيه، وإلا لكانت صدمة خسارته غير محتملة!

يتبع >>>>

تأكدت الشابات من جمع كافة المتعلقات الشخصية الخاصة بهن قبل ترك الغرفتين، والتوجه إلى بهو القصر الفسيح، حيث انتظرتهن الحاجة "بهية"، قامت بتوديع كل واحدة منهن على حدا، وأوصتهن في حنان أمومي:

-خدوا بالكم من حالكم يا بنات، وزي ما فهمتكم، ده بيتكم في أي وقت تحبوا تاجوا تعالوا.

انتظرت "ياقوت" حتى النهاية لتحتضنها في محبة وهي تخبرها:

-ربنا يخليكي لينا، وعقبال ما نسمع البشارة من "سندس".

رفعت الأخيرة كفيها للسماء مرددة في تضرعٍ:

-إن شاء الله يا رب، وعقبال فرحتنا بيكم يا غاليين.

جاءت إحدى الخادمات من الخارج، وتكلمت بصوتٍ مرتفع نسبيًا:

-الشناطي كلها يا حاجة في العربية.

في التو قامت الشابات بتوديع مُضيفتهن للمرة الأخيرة قبل مغادرتهن للقصر. كانت "ياقوت" آخر من تحركت، فقد طمعت في تحين الفرصة لرؤية "صفوان" قبل ذهابها؛ لكنها لم تتمكن. شعرت بالحزن يجرف داخلها، وأخفت ذلك وراء ابتسامة مهذبة، لتودعها بغصة عالقة في حلقها:

-نشوف وشك بخير.

شددت من ضمها لها، وقالت في ودية:

-هتوحشيني يا غالية، نورتي المُطرح.

وكأن دفقة من السرور قد غمرت روحها المشتاقة، رأته واقفًا بجوار الحافلة الصغيرة، لم تمنع نفسها من النظر إليه، أرادت التمتع بهذه اللحظات الثمينة قبل أن تُحرم منه للأبد. وجدته يُملي أوامره على خفره وهو يشير بيده:

-تخلي عينكم عليهم لحد ما يوصلوا بالسلامة.

تقدمت تجاهه وهو لا يزال يتكلم في صوته الآمر:

-ولو حاجة نقصت عليهم تجيبهالهم.

رد عليه أحد الخفر في طاعة:

-أوامرك يا كبير.

وقفت قبالته، متوقعة أن يطرق رأسه كعادته حين يراها، دهشها تمامًا لحظة أن

رفع حدقتيه ليطالعها بهذه النظرة المهتمة، تلك التي نفذت إلى داخلها كسهمٍ أصاب هدفه، رمشت بعينيها في ارتباكٍ مشوب بالخجل وهو يخاطبها:

-شرفتوا.

ردت عليه باسمة في أدبٍ:

-شكرًا على ذوقك.

اقترب خطوة منها، فتلبكت أكثر، ومع ذلك لم تحد بناظريها عنه، تدلى فكها للأسفل وقد اعتذر منها دون تمهيدٍ:

-حقك على راسي إن كان في حاجة ضيقتك إكده ولا إكده.

ازدردت ريقها، وقالت في ربكةٍ ملحوظة:

-حصل خير، كفاية كرمكم واستضافتكم الحلوة.

ضغطت على أناملها في توترٍ، وودعته بصوتٍ حاولت أن يبدو ثابتًا:

-نتقابل على خير.

تراجع عنها قائلًا في جدية واجمة غطت على كامل ملامحه:

-مع السلامة.

ابتسمت ولم تزد حرفًا، وركبت الحافلة وهي لا تزال تاركة لعينيها فرصة الاستمتاع باللحظات الأخيرة في وجوده بقربها، فلا تعرف متى وأين يمكن أن يجتمعًا معًا!

يتبع <<<<

انتفخت عروق وجهه من الانتظار الطويل - بصحبة أتباعه المخضرمين فيما هو خارق للقانون- تحت لهيب أشعة الشمس الحارقة، عند مفترق الطريق الفاصل بين البلدة وذاك المؤدي للطريق السريع. لثم أحد قطاع الطرق وجهه بوشاحه الداكن، وكلم من معه في صوتٍ غليظ وآمر:

-اطلعوا فوق النخل اللي هناك، ولو شوفتوا العربية جاية حدانا إدونا إشارة.

تحرك أحدهم من موضعه تنفيذًا لأمره صائحًا:

-وجب يا ريس.

تساءل آخر في برطمة مزعوجة:

-احنا هنفضلوا كتير إهنه؟ الشمس قورت نافوخي.

نظر إليه شزرًا قبل أن يجاوبه:

-مش هنمشوا إلا لما نخلصوا مهمتنا...

ثم ارتكز ببصره على بقعة وهمية في الفراغ الفسيح الممتد قبالته متابعًا حديثه إليه في تحيزٍ حانق:

-دي فرصتنا الوحيدة، ولا عاوزهم يقولوا بيت "صفوان" حطوا على مطاريد الجبل؟ تفتكر الناس هتهابنا بعد إكده؟

وافقه الرأي مومئًا برأسه:

-كلامك صح يا ريس.

صافرة غريبة صدحت فجأة لتثير انتباه المجتمعين، أتبعها قول أحدهم كتحذيرٍ:

-جايين!

في التو أمر رجاله باتخاذ مواقعهم كما خطط سابقًا:

-إداروا، وعند إشارتي تهجموا.

أطاعوه في الحال، وامتثلوا لأوامره، وراحوا يتوارون عن الأنظار خلف نقاطٍ بعينها، تمكنهم من حصار القادمين، وتضييق الخناق عليهم، حتى يتمكن من أسر من يريد دون عناءٍ أو مقاومة، ومن ثم الهروب إلى سفح الجبل بلا عائق.

يتبع >>>>>>

بقيت حبيسة همومها الجديدة، لم تتخيل أن يُحدث فراقه ذلك الأثر في نفسها، ومواقفها معه لا تتجاوز أصابع اليد، ومع ذلك شعرت بأنها تعرفه منذ زمن، ربما يعود ذلك لمواصلة "سندس" الحديث عنه ليل نهار

طوال فترة معرفتها بها، وتجسد ذلك واقعيًا واقترن بشخصه عندما رأته. لم تتمكن "ياقوت" من تخطي مسألة الذهاب، كم ودت لو بقيت في ذلك المكان لأيامٍ أكثر؛ لكن القدر لم يسعفها!

حاولت إلهاء عقلها عن التفكير فيه بالنظر إلى الطريق، ووضع سماعات الهاتف في أذنيها. الضغطة المفاجئة لمكابح الحافلة جعلت جسدها يرتد وينتفض، اصطدمت رأسها بالزجاج، وتعالت الصرخات من حولها. مالت برأسها لترى ما حدث، حلت الصدمة على ملامحها حينما أبصرت عدة ملثمين يحاوطون الحافلة من كل اتجاه، وفي أياديهم أسلحة آلية، تشاجروا يدويًا وكذلك بالعصي مع الخفر، لينجحوا في التخلص منهم بلا مجهودٍ نظرًا لقلة عددهم. انفلتت منها

شهقة مذعورة كبقية الشابات عندما فُتح الباب عنوة ليصرخ فيهن أحدهم وهو يصوب سلاحه تجاه وجوههن:

-انزلي يا حُرمة منك ليها!

هتفت "ياقوت" مدافعة عن نفسها، وعنهن جميعًا:

-احنا معملناش حاجة!

قاموا كذلك بإنزال السائق عنوة، وأبرحوه ضربًا ليفقد وعيه، فارتفعت أصوات الصراخ المستغيث، ليطلق الملثم أعيرته النارية في الهواء هادرًا:

-ولا كلمة.

اضطرت الشابات لكتم صراخهن جبرًا، ليبدأن في الترجل خوفًا وذعرًا من الحافلة،

وهن لا يتوقعن أبدًا النجاة من براثن عتاة الإجرام المتربصين بهن.

يتبع >>>>>

في نفس الأثناء، تمكن أحد الخفر من الفرار مستخدمًا دراجته النارية ليبلغ على الفور في طريق عودته هاتفيًا رب عمله بالكارثة التي حلت على الحافلة، وقتئذ أصدر "صفوان" أوامره بحشد كل رجال العائلة، ومن هم موالين له للتحرك في الحال لإنقاذهن. جلَّ ما كان يخشاه هو تعرضها للأذى أو فقدانها، مجرد استحضار هذه الفكرة السيئة في عقله كان يفزعه حد الموت.

في قرارة نفسه ندم أشد الندم لأنه تركها دون أن يتأكد من حقيقة مشاعرها تجاهه، رغم أن العيون باحت بما عجزت عنه الألسن.

كان "صفوان" على رأس المنتقلين نحو طريق الجبل، ومن ورائه انتفضت البلدة عن بكرة أبيها، ليهرعوا من كل حدب وصوب للمشاركة في عملية الإنقاذ، كذلك تواصل العمدة مع مسئولي الأمن لإبلاغهم بالمستجد والطارئ من الأحداث، فسعوا للتنسيق مع كبيرهم وأهل بلدته للتعاون معًا من أجل الإطباق على هؤلاء المجرمين والقبض عليهم دون تعريض أي بريء للأذى.

يتبع >>>

آخر ما تذكرته عقب لحظات إخراجهن من الحافلة بقيام أحدهم بوضع كيس قماشي أعلى رأسها، حاجبًا عنها الرؤية، وتبع ذلك ضربة عنيفة على مؤخرة عنقها، ليجتاحها دوار عنيف، قبل أن تشعر بذراع قوية تجذبها

من خصرها لتحملها عنوة، وتلقي بها على كتف أحدهم وهي تترنح بين اليقظة والإغماء. عندما استفاقت بعد وقت لا تعلم ما هو وجدت نفسها مكممة الفم، مقيدة من يديها وقدميها، ومتروكة على مسافة منفصلة عن رفيقاتها، اللاتي كن في نفس وضعها، وفي مكانٍ أشبه بالكهف الجبلي.

كانت غير قادرة على الحركة، عاجزة عن النهوض، بكت في هلعٍ، وهي تقاوم إحساس الدوار المسيطر عليها، حاولت تفقد ثيابها بعينيها الزائغتين لتتأكد من عدم قيام أحدهم بالاعتداء عليها وهي فاقدة للوعي. تنفست الصعداء رغم رهبتها المستحوذة عليها لكونها على نفس الحال حين تم اختطافها، تبادلن جميعًا نظرات فزعة

مرتاعة، فلم يعرفن سبب أخذهن قسرًا، ولا تبعات ذلك.

صرخن دفعة واحدة عندما صدحت في الأرجاء أصوات مدوية لأعيرة نارية مكثفة، جعلت ما حول الجبل يهتز في عنفٍ مخيف. بعد بضعة دقائق خبت الأصوات، واختلطت بهمهمات غاضبة ومتداخلة، أتبعها اقتحام أفراد الأمن لما اعتبروه وكرًا، وقاموا بتحريرهن تباعًا.

اتجه "صفوان" ببصره نحو "ياقوت" عندما وجدها مكبلة مع الأخريات، نزع عنها قيدها، وعاونها على النهوض فترنحت قليلًا من الوقوف المفاجئ، فحصها بنظراته القلقة وهو يسألها:

-إنتي بخير؟

كانت ممتنة لرؤيته، أشعرها وجوده بالأمان الذي افتقده طوال ساعات احتجازها، في التو اعترفت له بما كانت تكنه له بصدقٍ:

-الحمد لله إنك هنا.

أمسك بها من ذراعيها، وسألها وهو لا يزال يجوب ببصره على جسدها:

-في حد عملك حاجة؟ قولي، ماتخافيش، وأني قسمًا عظمًا لهجيب خبره.

هزت رأسها نافية بخفةٍ، وأخبرته بصوت مرتجف:

-أنا كويسة، بس خايفة أوي.

انتفض ذلك العرق النابض في جبينه، بالكاد كظم غضبه، وأكد لها بصوته الأجش القوي:

-اطمني، محدش هيقدر يتعرضلك تاني طول ما أني موجود جمبك.

لاحظ خيط الدماء المتسرب عند منحنى عنقها، فحاول تبين مصدره متسائلًا:

-وريني راسك.

تحسست موضع الألم، وقالت بعدما رأت بقعة الدماء تلطخ يدها:

-بسيطة، مكان ما ضربني على راسي.

لعن "صفوان" في صوتٍ خفيض، وحاول ضبط انفعالاته الثائرة لئلا يتركها ويذهب إلى الخارج ويودي بحياة كل من تسبب في جرحها، أشارت "ياقوت" بيدها له لتتحرك؛ لكنها فقدت اتزانها، فتلقفها بذراعه قائلًا:

-امسكي نفسك.

اعتذرت منه لتصرفها الأخرق مبررة:

-أسفة، بس لسه دايخة شوية.

شهقة خافتة خرجت من بين شفتيها عندما وجدته ينحني ليحملها بخفةٍ بين ذراعيه، لم تمانع ذلك، فما زال تأثير الخبطة ظاهرًا عليها، ومع هذا لم تجرؤ على النظر إليه من هذا الموقع القريب، واستمعت إليه وهو يردد:

-ماتقوليش إكده، أني كان ممكن أروح فيها لو جرالك حاجة.

تشجعت لتنظر إليه بعد جملته المحملة بأسمى المعاني، سألته في صوتٍ شبه خافت:

-وباقي البنات؟

أجابها في الحال:

-اطمني، كلهم بخير، ومع الحكومة.

شعرت بالارتياح لكون الجميع قد نجا من الخطر، ولكنها تساءلت في تخبطٍ:

-هما عملوا فينا كده ليه؟

بعد زفرة سريعة أخبرها:

-حظكم العِفش وقعكم مع شر الطريق، بس خلاص، هما اتقبض عليهم، وإنتي بقيتي في أمان.

تقوست شفتاها عن ابتسامة صغيرة وهي تستشعر بقوة جدية عبارته الأخيرة، لتستسلم بعدها لهذا الخدر الغريب الذي سرى في إدراكها، لم تقاومه، بل نظرت بامتنانٍ غير خائف لمن كانت واثقة أنه سيذود عنها مهما كلفه الأمر.

يتبع >>>>>

عادت إلى وعيها مرة أخرى، فوجدت نفسها بواحدٍ من المشافي الحكومية التابعة للبلدة، حيث تلقت بها الرعاية اللازمة لتصبح أفضل حالًا، نظرت إلى باب الغرفة عندما استأذن أحدهم بالدخول مناديًا باسمها:

-ست "ياقوت".

اعتدلت في رقدتها، واضعة الوسادة خلف ظهرها، وقالت بصوتٍ شبه متحشرج:

-أيوه.

أجلت أحبال صوتها ونظرت إليه بخجلٍ، فسألها باهتمامٍ زائد:

-عاملة إيه دلوقتي؟

ردت باسمة قليلًا وهي ترفرف بجفنيها:

-أحسن الحمد لله.

أشار بيده نحو الباب متابعًا:

-أني جيت أطمن عليكي، وهمشي.

أوغر صدرها تصريحه بالذهاب، لهذا حاولت استطالة الحديث معه فسألته بوجه عكس القليل من الكدر:

-باقي البنات كويسين؟

أجابها في جديةٍ:

-أيوه، كلهم بخير، وخرجوا من إهنه وودياهم حدانا.

ردت عليه "ياقوت" مبدية عرفانها بجميله:

-احنا تعبناكو معانا.

أخبرها في استعتابٍ رقيق:

-متقوليش كده، تعبك كله راحة.

جملته كانت موحية، ومُرضية لها، تبسمت في تلقائية، وتوردت بشرتها. حاولت تورية ما ينتابها من مشاعر رقراقة بتبديل مجرى الحوار إلى آخر بقولها:

-تلاقي خالتي قلقانة عليا.

في التو أخبرها:

-اطمني، كلمناها ودريت باللي حصل.

وقبل أن تدور برأسها الهواجس، أكد لها:

-بس متقلقيش، أني خبرتها إنك كويسة وبخير.

مقاومة هذا الشيء الذي تشعر به نحوه كان يزعجها بشدة، لهذا قررت إزالة كافة الحواجز التي تحول دون تأكدها من إحساسه ناحيتها، فلم تعد تطيق حجب مشاعرها

المرهفة، تحلت بالشجاعة، واستجمعت جأشها لتبادر بالاعتراف الحذر له:

-مش عارفة هتصدقني لو قولتلك إني كنت مطمنة إنك هتيجي تلحقنا.

خُيل إليه أنها أعطته الإذن ضمنيًا للإفصاح مثلها عما بذل فيه جهدًا لتكوين عبارة مفيدة تمنحه عبرها الفرصة لسؤالها إن كانت حقًا ترغب في العيش هنا والارتباط به، لم ينتقِ هذه المرة كلامه عندما نطق بشكلٍ عفوي:

-وأني عمري ما كنت هسيبك، أني عاوز أفضل جارك.

لمعت عيناها بوميضٍ كان ساحرًا، ومصحوبًا بابتسامة مشرقة، مما أكد له أنها

لا تمانع مطلقًا في اتخاذ خطوة جدية في توطيد علاقته بها.

يتبع >>>>>

في وقت لاحق، وبجوار أحواض الزهور الضخمة، والموجودة في حديقة القصر بعدما عاد الجميع سالمًا إليه، جلست "ياقوت" على حافة السور الحجري لتنظر إلى ذلك الواقف أمامها وهو يخاطبها في صوتٍ دافئ وحنون:

-ست "ياقوت"!

همهمت في صوت ناعم:

-نعم.

احتاج لكل شجاعته ليسألها في جديةٍ:

-مانفسكيش تفضلي إهنه؟

وكأنها تشاركه نفس الرغبة والإحساس، فقالت برجاءٍ صريح:

-يا ريت...

بردها المقتضب والمباشر هذا منحته المزيد من الأمل لتحقيق ذلك الحلم الذي راوده منذ أن رآها للمرة الأولى تطأ أراضيه. خفضت "ياقوت" من رأسها لتكمل جملتها بتحرجٍ:

-بس هفضل فين ومع مين؟

أجابها في تلهفٍ مدفوعٍ بحماسه العظيم:

-فين دي أمرها سهل، بس مع مين بقى ليها كلام تاني!

رمشت بعينيها في ربكة متزايدة، خاصة عندما أضاف:

-والكلام ده لازمًا يمشي بالأصول، بس الأهم إنك تكوني موافقة.

لحظتها نظرت إليه في ترقبٍ، وكأنها تخشى الإفاقة من هذا الحلم الجميل، سرعان ما حادت بحدقتيها عنه عندما وجدت خالتها تقترب منهما وصوتها يسبقها:

-أنا معنديش مانع.

انتفضت قائمة لتجري ناحيتها وهي تناديها في شوقٍ:

-خالتي!

ثم ارتمت في أحضانها، فضمتها إليها وهي تكلمها بتحنانٍ كبير:

-حمدلله على سلامتك يا حبيبتي.

تراجعت عنها "ياقوت" لتنظر إليها بعينيها الفرحتين، وسألتها في لهفةٍ:

-جيتي إزاي هنا؟

أدارت "شيرين" رأسها تجاه "صفوان" المشاهد في صمت للقائهما الحميمي، وجاوبتها باسمة في شيءٍ من الامتنان:

-"صفوان" دبر كل حاجة علشان أكون هنا جمبك في أسرع وقت...

بشكلٍ لا إرادي توجهت "ياقوت" بنظرها إليه، بينما تحولت نبرة خالتها للاعتزاز وقتما أكملت:

-وبصراحة هو راجل ما شاء الله عليه، لو تشوفي الناس بتحكي عن اللي عمله عشان يوصلك هتعرفي إن مافيش منه اتنين...

في مكرٍ بدا محرجًا لكليهما أنهت حديثها إليهما:

-ربنا يحميه لشبابه، ويرزقه ببنت الحلال اللي تستاهله، ولا إنتي رأيك إيه؟

تلبكت للغاية من تلميحها الأخير، وهربت من نظرتها المتفرسة فيها لتقول في تدللٍ:

-الله بقى يا خالتي!

ضحكت خالتها ملء شدقيها في تسلية قبل أن تؤكد لها:

-دي مافيهاش كسوف.

ثم التفتت ناظرة إلى ذلك الواقف خلفهما موجهة حديثها إليه:

-والأصول ما تزعلش.

آنئذ تدخل "صفوان" معلقًا عليها بنبرة
اتخذت طابعًا جديًا، وقلبه يرقص بين
ضلوعه طربًا؛ لأنه سقط أخيرًا –وعن طواعية
كاملة- في بئر العشق بين عشية وضحاها:

-صُح الكلام!

-تمت-

في انتظار متابعتكم لعمل آخر جديد♥